تراث الإنسانية

عن الصداقة

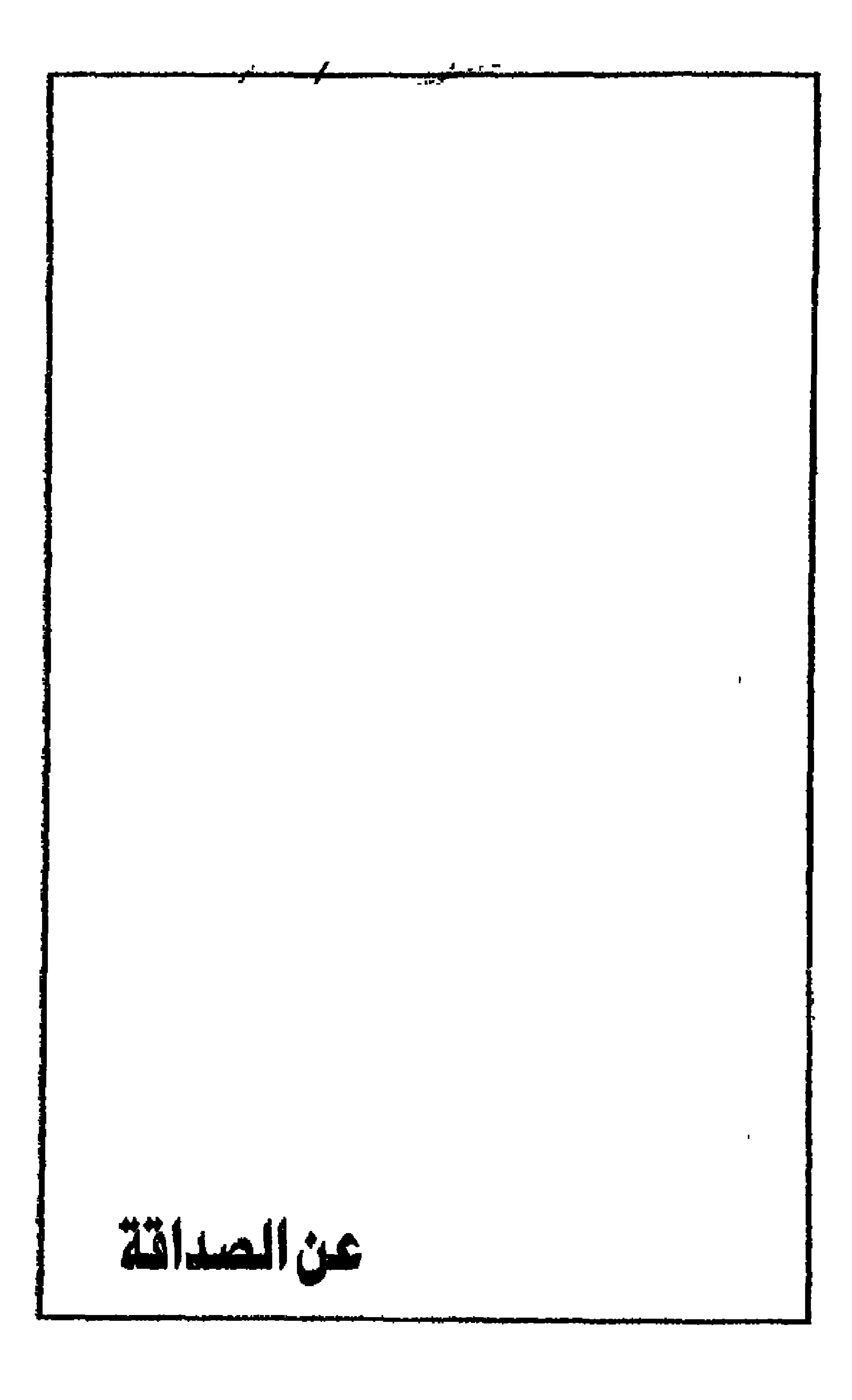
لشيشرون



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د . أحمد عبدالرحيم أبوزيد

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

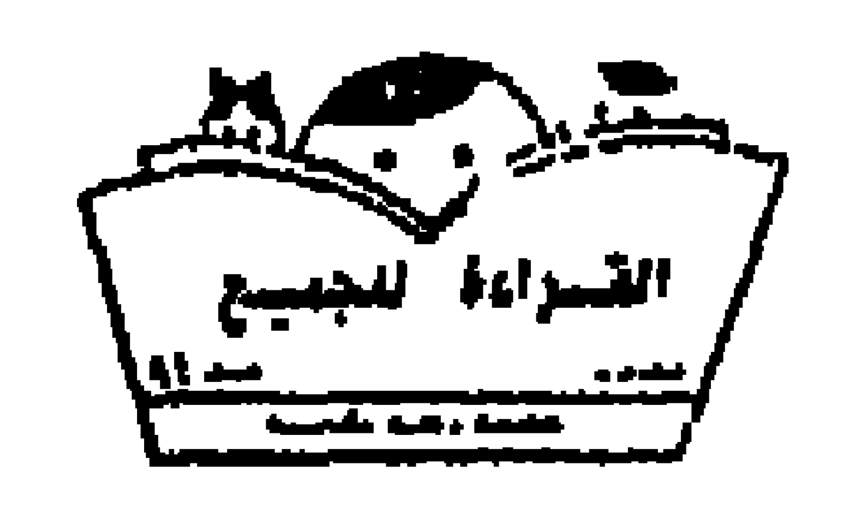


عن الصداقة

عن الصداقة

لشيشرون

د . أحمد عبد الرحيم أبوزيد



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الاعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د. سمير سرحان

عن الصداقة
لشيشرون

د . احمد عبدالرحيم ابو زيد

يعتبر اســـم « ماركـــوس توليـــوس كيكـــيرو » Marcus Tullius Cicero المعروف لنا باسم « شيشرون » رمزا للفصاحة وذلك كما يرمز اسم « هوميروس » للشعر الملحمى واسم « شكسبير » للدراما ٠

ويمتدح البحاثة « فيريرو » Ferrero شـــيشرون لتأسيسه سلالة من الخطباء والمحامين والأساتذة مثل سلالة قيصر ورغم أخطاء هذه السلالة فقد كان لها ولا شك تأثير كبير على مصير أوروبا لا يقل عن تأثير القياصرة لفترة تقرب من ألفى عام ٠

وعاش شيشرون فى عصر أخذت فيه روما مكانة بلاد اليونان باعتبارها مركزا للثقافة وكان لها المركز الأول بين أمم العالم ٠

ولم يكن لشيشرون مكانة أدبيـــة ممتازة فى عصره فحسب ، بل كان نموذجا ومعلما للأجيال اللاحقة ٠

ولد « ماركوس توليوس كيكيرو » Marcus Tullius Cicero عام ١٠٦ ق٠م فى مدينة صـــغيرة تســـمى

« أربينوم » Arpinum تقع الى الجنوب من « روما » بحوالى خمسة وستين ميلا .

وكان أبوه يحمل نفس اسم « شيشرون » أما أمه فكان اسمها هيلفيا Helvia وكانا من أسرة ريفية متوسطة الحال ، وكان أبوه ينتمى الى طبقة الفرسان التى كانت تعتبر الطبقة الثانية فى الدولة ، ولم يلعب أبوه أو أى فرد من أسرته دورا هاما فى الحياة العامة .

وفى مدينة روما درس شيشرون النحو والبلاغة والفلسفة والقانون على أعظم أساتذة روما فى ذلك العصر فقد درس النحو على الشاعر اليونانى « أرخياس » Archias الذى اتهم بأنه حصل على لقب مواطن رومانى ضد القانون وقد دافع عنه شيشرون ونجح فى دفاعه الذى سجلته لنا خطبته المعروفة باسم Pro Archia وقد وصلتنا كاملة .

كما درس شيشرون البلاغة خاصة على « أبولونيوس مولون الروديسى » (Appolonius Molon of Rhodes) وكان أساتذته فى الفلسفة هم فايدزوس Phaedrus والابيقورى و « ديودوتوس » Diodotus الرواقى (الذى كان يقطن منزل شيشرون لعدة سنوات) و « فيلون » Philon الذى كان على رأس الأكاديمية التى كانت تسير على تعاليم أفلاطون وكان شيشرون قد التحق بالجيش فى سن الثامنة عشرة واشترك فى الحرب بين روما وحلفائها الايطاليين .

وقد اشترك فى الحياة العامة وهو فى سن الخامسة والعشرين (سنة ٨١ ق٠م) حيث قام بالدفاع فى قضية مدنية خاصة بشخص يدعى « كوينكتيوس » Pro Quinctio وهى قضية غامضة معقدة مجهولة التفاصيل ٠

وفى السـنة التالية سـسنة ٨٠ ق٠م ـ حيث كان « سلا » Sulla يحـكم روما حكما مطلقا قبل شيشرون أن يتولى الدفاع فى قضية « سـكستوس روسـكيوس » Sextus Rosocius ضد « خريسوجونيس » Chrysogoncs أحد أتباع « سلا » ٠ ومضمون القضية أن والد «سكسبتوس» كان قد قتل فى روما وأراد خريسنوجونيس أن يستولى على أملاكه فاتهمه زورا بأنه عدو للشعب ـ ولم يكن كذلك ـ ولكى يضمن عدم احتجاج سكستوس الابن اتهمه بأنه قاتل أبيه ولقد نجح شيشرون فى تثبيت جريمة القتل على أحد أقرباء سكستوس الذى كان له مصلحة فى قتله ٠

ونلحظ أن شيشرون فى هذه الخطبة عرض بالنظام السياسى لسلا ، وان كان قد ألقى تبعة فساد ذلك النظام على أتباع سلا ، فى حين أنه امتدح سلا نفسه ٠

وقد حقق انتصار شيشرون فى هذه القضية شهرة كبيرة له وجعله فى مصاف أحسن خطباء العصر ٠ وعقب ذلك رحل شيشرون الذى أنهكه العمل ـ الى أثينا ورودس سنة ٧٩ ق٠م ومكث هناك مدة سـنتين يدرس الفلسـفة والبـلاغة فدرس الفلســفة فى أثينا على الفيلســوف « أنتيوخوس » كما تلقى دروسه فى البلاغة فى « رودس »

على يد « مولون » أستاذه القديم الذى نصحه بأن يترك الأسلوب المنمق في الخطابة ٠

ثم عاد شيشرون الى روما سنة ٧٧ ق٠م بعد أن تحسنت صحته وواصل عمله في ميدان القضاء وربما يكون في تلك الفترة قد تزوج من « تيرنتيا » Terentia وكانت امرأة ثرية ومتدينة ، ولكنها كانت متعصبة لآرائها وعصبية المزاج ، ورغم ذلك فقد ملكت على شيشرون عواطفه لمدة ثلاثين عاما حتى طلقت منه سنة ٤٧ ق٠م وكانت عونا له فيما صادفه من محن بثباتها وصمودها طوال المدة التى عاشتها معه ، وقد أنجبت له طفلين هما « ماركوس » و « توليا » التى توفيت سنة ٤٥ ق٠م وحزن شيشرون على وفاتها حزنا عميقا ٠

وفى سنة ٧٥ انتظم شيشرون فى سلك وظائف الدولة حيث عين « كوايستورا » (وظيفة خاصة بالمالية) وذهب الى صقلية مع حاكمها الرومانى وقد خدم هناك بأمانة واخلاص وبدون تحيز ، حتى حاز اعجاب أهل صقلية ٠

وقد ساعده ذلك على أن يختار ممثلا للاتهام فى قضية « فيريس » Verres حاكم صقلية الذى اتهمه أهالى صقلية بسوء حكمه فى الولاية وسلب أموالها (سنة ٧٣ ــ ٧١ ق٠م)

وفى سنة ٧٠ ق٠م ألقى خطبته المشهورة ضد فيريس واتهمه فيها بسلب أموال الولاية وقد تفوق شيشرون فى

دعواه على دفاع « هورتنسيوس » Hortensius الذى تولى مهمة الدفاع عن فيريس ، والذى كان من أعظم خطباء تلك الفترة ٠

وقد دافع شيشرون بعد ذلك فى عدة قضايا معظمها يتصل بمصالح طبقة الفرسان التى كان ينتمى اليها ٠ وبعد انتصاره فى قضية « فيريس » بثلاث سنين حصل على وظيفة « أيديل » Aedile سنة ٦٩ ق٠م ٠ وهى وظيفة ادارية ٠ وفى سنة ٦٦ ق٠م أصبح برايتور Praetor - وظيفة فى السلك القضائى - وبعد أربع سنوات وفى عام ٦٣ ق٠م أصبح قنصلا ، وأبرز حادث وقع أثناء قنصليته هو تلك المؤامرة التى دبرها « كاتلينا » Catilina لقلب نظام الحكم فى روما ٠ وقد كان كاتلينا هذا من طبقة الأشراف ، وقد فشل فى الحصول على وظيفة قنصل فثارت ثائرته ، وأعلن أنه يريد تطهير الدولة والغاء الديون ٠ تلك المطالب التى شغلت بال طبقة الفرسان ٠ وقد اتهمه شيشرون - بحق - بأنه كان يبغى القيام بمذبحة بين المواطنين ، والاستيلاء على الحكم بالقوة وأعد شيشرون خطبة ضد كاتلينا وعندما ألقى خطبته الأولى بما فيها من قدح لاذع وذم لكاتلينا كان ذلك كافيا لأن يجهر كاتلينا بثورته ويعلن آراءه على الملأ ، وقد اكتشف شيشرون المؤامرة بفطنته وعوقب المتآمرون ، وأخيرا قتل كاتلينا وألقى شيشرون خطبه الأربع ضد كاتيلنا ٠

وكان القضاء على هذه المؤامرة نصرا سياسيا شخصيا لشيشرون ولكنه لم يهنأ كثيرا بهذا النصر اذ حدث عقب ذلك أن رجع « بومبيوس » منتصرا من الشرق فى عهد قنصليته فلم يستقبله شيشرون استقبالا حماسيا يليق بانتصاراته الباهرة ، فأثار هذا الأمر حفيظة بومبيوس عليه وقد عمل بومبيوس على التقرب من « يوليوس قيصر » و « كراسوس » الثرى ، وتكون من الثلاثة التحالف الثلاثى الأول سنة ٦٠ ق٠م ، واتفق الثلاثة على تقسيم السلطة فيما بينهم ، ولم يكن فى مقدور شيشرون أن يناهض هذا التحالف علنا ، وقد أراد أن يحيط نفسه بأنصار من الأشراف ، ولكن ذلك لم يحمه من النفى لمدة عام (٥٨ ـ ٥٧ ق٠م) بناء على اقتراح « كلوديوس » Clodius الذى كان يعمل لحساب أعضاء ذلك التحالف الثلاثى ، وكانت التهمة التى وجهت الى شيشرون ونفى بسببها هى أنه قتل أنصار كاتلينا بدون محاكمة ٠ وفى سنة ٥٧ ق٠م عاد شيشرون الى روما حيث عاش بعيدا عن ميدان السياسة ولكنه استمر فى الظهور فى دور المحاكم ، وفى سنة ٥١ ق٠م عين حاكما فى « كيليكيا » بآسيا الصغرى لمدة سنة ، كانت بمثابة نفى له أيضا ٠

وفى الفترة ما بين سنة ٥٨ ق٠م وسنة ٥١ ق٠م قام شيشرون بعدة أعمال قضائية لم يتعرض فيها كثيرا للأعمال السياسية ٠

وعندما نشبت الحرب الأهلية بين قيصر وبومبيوس (٥٠ ـ ٤٨ ق٠م) تردد شيشرون فى اختيار الجانب الذى ينحاز اليه ويناصره ، وأخيرا قرر أن ينضم الى بومبيوس حيث تبعه الى « ديراخيوم » Dyrrachium فى بلاد اليونان سنة ٤٩ ق٠م ، ولكن عندما تم النصر لقيصر على بومبيوس فى موقعة « فارسالوس » سنة ٤٨ ق٠م اضطر شيشرون الى الخضوع لديكتاتورية قيصر ٠

وخلال فترة حكم قيصر الديكتاتورى كان مجال اسهام شيشرون فى الحياة العامة محدودا ، الأمر الذى هيأ له فرصة التفرغ للانتاج الفلسفى الممتاز ٠

وحوالى سنة ٤٦ ق٠م طلق شيشرون زوجته « ترنتيا » Terentia وعقب ذلك بقليل تزوج من « بوبليا » Publia التى كانت تصغره فى السن ولم يحالف التوفيق هذه الزيجة ثم سرعان ما توفيت ابنته « توليا » Tullia وقد كان يعزها كثيرا ويفضلها على أخيها « ماركوس » ولذلك حزن كثيرا لوفاتها ٠

وقد سر شيشرون كثيرا بوفاة قيصر مثال الديكتاتورية ٠ ولا عجب فشيشرون قد نصب نفسه للدفاع عن الجمهورية ، ولكنه لم يلبث أن تألم عندما أبصر الحكم عقب وفاة قيصر يتحول الى شبه ديكتاتورية على يد أشخاص يقلون كفاءة عن قيصر أمثال « أنطونيوس » الذى هاجمه

شيشرون فى حين أن « بروتوس » و « كاسيوس » كانا قد اختفيا من الميدان ٠

عند ذلك ابتعد شيشرون عن مدينة « روما » واعتكف فى منزله الريفى حزينا مترددا حائرا لا يدرى ماذا يفعل كما يتضح ذلك من رسائله ، وأخيرا صمم على مهاجمة « أنطونيوس » علانية ، وقد حفظ لنا التاريخ هذا الهجوم العنيف فى خطبة شيشرون المعروفة باسم « الفيلبيكا » Philippica ــ ١٤ خطبة ــ وقد ظهرت هذه الخطب ما بين شتاء سنة ٤٤ ق٠م وأبريل سنة ٤٣ ق٠م ٠ وقد عقد شيشرون الأمل على « أوكتافيوس » أحد قواد جيش الجمهورية فى « موتينا » Mutina ضد أنطونيوس الذى أراد أن ينتزع حكم ولاية بلاد الغال (Gallia Cisalpina) بالقوة ، وبالرغم من انتصار جيش الجمهورية على « أنطونيوس » فان « أوكتافيوس » انضم الى أنطونيوس وكون معه ومع « ليبيدوس » Lepidus التحالف الثلاثى الثانى وبذلك انهارت كل آمال شيشرون فى انقاذ الجمهورية ٠

وأخيرا تغلب « أنطونيوس » و « أكتافيوس » على بروتوس وكاسيوس فى موقعة فيليبى Philippi فى مقدونيا سنة ٤٢ ق٠م ، ولكنهما قبل أن يتم لهما النصر فى تلك الموقعة قاما بعملية تطهير فى الدولة راح ضحيتها كثير من النبلاء والفرسان وكان من بينهم شيشرون الذى

كان في ذلك الحين معتكفا خارج روما ، وقد قتله جنــود أنطونيوس فى ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق٠م وأرسلت رأسه الى روما حيث علقت في مجلس الشيوخ ٠

أعماله :

يمكن تقسيم أعمال شيشرون الى ما يأتي :

١ ـ أعمال خطابية ٠

٢ ـ أعمال بلاغية ٠

٣ ـ أعمال سياسية ٠

٤ ـ أعمال فلسفية ٠

٥ ـ رسائل ٠

الخطابة :

بقى لنا من خطب شيشرون ـ التى تتجاوز المائة ـ ما يقرب من ستين خطبة ألقاها فى المحاكم أو فى مجالس روما أو نشرها دون القائها ـ وقد ذكرنا بعض هذه الخطب عند الحديث عن حياته ، وهذه الخطب اما أن تكون سياسية الطابع أو لها صلة ما بالسياسة ، واما أن تتناول قضايا قانونية تتصل بالأفراد ويقوم شيشرون فى معظمها بدور الدفاع ٠

وقد كان للخطابة في عهد الرومان مكانة مرموقة ، تتجاوز المكانة التى تحتلها الآن ، ولقد كان المواطن الروماني يعتقد أن البلاغة كالحرب كلاهما هام وضرورى فالدفاع فى قضية ما عن أحد الموكلين فى وقت السلم ، له نفس أهمية الدفاع عن الدولة فى وقت الحرب ·

وفى أول عصر الجمهورية كانت الخطابة عملا شرفيا لا يتقاضى عنه أجر ولكنه فى القرن الأخير منها أصبح مهنة مربحة ، ومن هنا جاء الاهتمام بتعلم فن الخطابة ·

وقد لعبت الخطابة دورا هاما فى حياة روما السياسية ، حتى أنهم عدوها حرفة من الحرف علاوة على كونها فنا من الفنون الأدبية ، وكانت تدرس فى المدارس الرومانية وكان للخطيب العام المكانة الأولى فى الدولة باستثناء كبار رجال الجيش ·

وقد أصاب شيشرون شهرة واسعة نتيجة لنجاحه فى معظم هذه القضايا · وأهم ما فى خطب شيشرون من مزايا هى تلك اللغة البليغة التى عالج بها هذه الخطب علاوة على مكانتها الرفيعة فى عالم الخطابة والأدب ·

ولقد مجد بعض كتاب الرومان القدماء هذه الخطب مثل المربى الرومانى « كوينتيليانوس » الذى نادى بعد موت شيشرون بما يقرب من مائة وثمان وثلاثين عاما بأن خطباء الرومان ينافسون اليونان فى أسلوب النثر الأدبى

ويضع شيشرون فى مصاف كبار الخطباء اليونان مثل ديموستينيس ٠

ومعظم شهرة شيشرون مرجعها خطبه ، ولقد كانت أسس النقد الأدبى الرومانى توضع دائما على أساس أسلوب شيشرون فى خطبه ، ذلك الأسلوب الذى اعتبر فى عصره والعصور التالية نموذجا للنثر الأدبى الرفيع للغة اللاتينية النقية ٠

وكان أسلوب شيشرون غزيرا فى مفرداته ، فقد عمد الى تشكيل الجملة اللاتينية فى صورة زمنية (period) وذلك بربط الجملة الرئيسية بعدة جمل فرعية بحيث تتكون من الجميع وحدة كاملة ٠ كما كان يقوم بالحيل المختلفة فى نظام تنسيق الكلمات فى الجملة ، كما امتاز أسلوبه أيضا بالتوكيد والمقارنة والسؤال والتعجب وغير ذلك من الأساليب ذات التأثير البالغ على المستمع ٠

وقد امتد تأثير خطب شيشرون عبر جميع العصور باستثناء العصور الوسطى التى فضلت كتاباته عن البلاغة والموضوعات الأخلاقية ٠

فقد عرفت النهضة الأوربية الحديثة فضل شيشرون وكانت القدرة على الكتابة باللاتنية هى أهم مقياس الثقافة ، واتفق العلماء الايطاليون فى القرن الرابع عشر على أن لغة شيشرون لا تبارى كأداة للكلام والفكر ٠

وقد قلد الانجليز أسلوب « شيشرون » فى عهد الملكة « اليزابيث الأولى » وكذا فى العصور المتأخرة ، فمثلا كان أسلوب القسيس الأكبر ريتشارد هوكر Richard Hooker يشابه أسلوب شيشرون ، فقد كان يلجأ الى نظام الجملة الطويلة التى تشمل جملا فرعية كثيرة قبل أن يصـــل الى نهاية الجملة ، ومن الذين تأثروا بأسلوب شيشرون من الانجليز (John Milton) وان كان أسـلوب ميلتون أكثر تفككا نظرا لأن اللغة الانجليزية لم يكن يسودها الصرف بنفس القدر الذى كان يسود به اللغة اللاتينية ـ وكذلك أثرت لغة شيشرون فى القرن السابع عشر فى كتـابات الشاعر الانجليزى « بوب » (١) Pope .

وفى القرن الثامن عشر تمثل اعجاب الناس بشيشرون فى مظهرين هامين من مظاهر الديموقراطية أولهما المحاكمة بواسطة « المحلفين » . وثانيهما المناقشة الحرة فى مجلس العموم (House of Commons) فقد تأثر هذان النظامان بخطابة شيشرون ، وكانت تشتمل على موضـوعات كثيرة متشابهة عالجها شيشرون فى خطبه ، وكان الخطباء الانجليز يتمثلون بها .

وان ما كتبه شيشرون فى الفيليبيكا (Philippica)

---

(١) يذكر الكسندر بوب هذه الابيات :

O come, that easy Ciceronian Style
So Latin, yet so English all the While ...

ضد أنطونيوس كانت محاولة لمنع الجمهورية الرومانية من التحول الى أوتوقراطية ، ولا شك أن هذا كان محببا لرجال الثورة الفرنسية الذين أرادوا أن يحولوا الموناركية الى جمهورية مستقرة ·

وقد تأثر بها كذلك رجال الثورة الأمريكية ·

البلاغة :

لقد اهتم الرومانيون بدراسة البلاغة ، ومعرفة النظريات المختلفة عنها نتيجة لميولهم الخطابية وقد عثر على كتاب مهدى لشخص يدعى « جايوس هيرينيوس » « Gaius Herennius » هذا الكتاب يشتمل على دراسات وبحوث في البلاغة ، ولا يعرف على وجه التحديد مؤلف هذا الكتاب ، ويعزوه بعض الباحثين الى شيشرون ، ولكن هذه النسبة غير صحيحة ، لأننا نعثر فى الكتاب على ما يدل أنه قد كتب بين سنتى ٨٦ ق·م و ٨٢ ق·م وأنه من عمل شخص ناضج متمرس ، ولقد كان شيشرون فى ذلك التاريخ لا يزال شابا ·

ولعل السر في نسبة هذا الكتاب الى شيشرون أن شيشرون استمد منه الكثير فى كتابه الأول عن البلاغة (De Inventione) .

وقد استمد هذا الكتاب مصادره عن اليونانيين ·

ويعالج الكتاب أنواع الخطابة ، ويقسم الأسلوب الخطابى الى ثلاثة أقسام :

١ ـ الأسلوب المفخم الرفيع « grand » .

٢ ـ الأسلوب البسيط « plain » .

٣ ـ الأسلوب الوسط « middle » .

وهذا التقسيم يتماشى مع الأهداف الثلاثة التى تهدف اليها الخطابة وهى :

١ ـ اثارة المشاعر .

٢ ـ افادة المعلومات .

٣ ـ خلق روح المرح .

فقد ذكر المربى كوينتيليانوس كما ذكر الأقدمون من قبله ، أنه يجب أن تتوافر في الخطيب ثلاث مزايا :

أولا : قدرته على افهام سامعيه موضوع خطبته .

ثانيا : قدرته على اثارة مشاعرهم .

ثالثا : قدرته على اثارة روح المرح بينهم .

وهذه الصفات اعترف بها شيشرون ، بل وكان مثالا فيها ، فقد كان يتحلى بقدرة فائقة على عرض الموضوع الذى يعالجه على المستمعين ، بحيث يلمون بأطرافه كما كانت

له نفس القدرة على اثارة مشاعرهم والتأثير فى نفوسهم واثارة روح المرح فيهم من خلال علاجه لموضوعه ٠

ولقد تأثر الرومان بمدارس البلاغة اليونانية ، التى كانت تتبلور فى مدرستين رئيسيتين ، تمثل احداهما الأسلوب الرفيع الجزل (grand) وتسمى بالمدرسة الآسيوية وتمثل الأخرى الأسلوب السهل الواضح (plain) وتسمى بالمدرسة الأتيكية فكانت المدرسة الآسيوية (بأسلوبها الرفيع المشتمل على كثير من العبارات الجزلة المفخمة) تهدف الى اثارة الشعور ، والتأثير فى نفوس المستمعين بواسطة هذا الأسلوب الرفيع ٠

وعلى العكس من هذا كانت المدرسة الأتيكية ـ بأسلوبها السهل البسيط البعيد عن كل تنميق ـ تهدف فى الدرجة الأولى الى افادة السامع معلومات عن الموضوع ، وكانت تحارب أسلوب المدرسة الآسيوية الذى كانت تصفه بأنه أسلوب مصطنع يهدف الى الاثارة ٠

ويرجع تاريخ هاتين المدرستين الى العصر الهلينستى الذى يبدأ فى القرن الثالث قبل الميلاد ٠

ويعتبر « هورتينسيوس » ـ منافس شيشرون فى الخطابة ـ من أعظم خطباء المدرسة الآسيوية ٠

أما المدرسة الأتيكية فكان يمثلها يوليوس قيصر وبروتوس ولم يشأ شيشرون أن يقيد نفسه بأسلوب أى

من هاتين المدرستين ، وفى ذات الوقت فانه لم يرفض مبادىء المدرستين ، وانما حاول أن يأخذ من كلا المدرستين ما فيها من مزايا وأن يتجنب ما فيها من عيوب ٠

فكان يأخذ على أسلوب المدرسة الآسيوية ما فيه من مبالغة وتضنع ، كما كان يعيب على أسلوب المدرسة الأتيكية أنه كان عاطلا من كل حلية ، الأمر الذى يبعده عن الغرض الحقيقى من الخطابة وهو التأثير فى السامعين ٠

وشيشرون ينتقد الأسلوب الذى لا يؤثر فى المشاعر فيعيب مثلا على خطبة بروتوس بعد موت قيصر انها كانت جافة ، وقاصرة عن التأثير ولذلك لم تستطع أن تكسب الجماهير ٠

ويرى شيشرون أنه ينبغي على الخطيب أن تتوافر لديه القدرة على التحدث بأى من الأسلوبين الآسيوى الرفيع المثير للمشاعر ، والأتيكي الاخبارى البسيط هذا الى جانب الأسلوب المتوسط (middle) الذى يستعمل لاثارة المرح والسروز ٠

ويعتقد شيشرون أن الخطيب الحق هو الذى تتوافر لديه القدرة على التحدث بأى أسلوب حسب ما تقتضيه ظروف الخطبة ٠ ومن هذا يتضح أن شيشرون لم يتقيد بانتهاج أسلوب واحد معين في خطبه ٠

ويحمل شيشرون الصفات التى ينبغى توافرها فى

كل خطيب جيد فى خمس صفات رئيسية ، فالمتحدث الجيد فى رأيه لابد أن يتوافر فيه ما يلى :

١ ــ أن تكون لديه المقدرة على حسن اختيار مادته (٢) .

٢ ــ أن يكون ماهرا فى تنظيمها (٣) .

٣ ــ أن يجد التعبير عنها (٤) .

٤ ــ أن يتمتع بذاكرة قوية (٥) .

٥ ــ أن يحسن القاءها (٦) .

وبالاضافة الى هذا لا بد أن يتمتع الخطيب بثقافة واسعة .

وقد عالج شيشرون كل هذه القضايا الأدبية والفكرية ، وكثيرا غيرها فى كتبه عن البلاغة ، هذه الكتب التى تعتبر عملا فنيا فذا ، له من المزايا ما جعله محل اعجاب الجميع وتقديرهم .

فقد تناول شيشرون فى كتبه تاريخ الخطابة ، والخطباء الأول سواء عند اليونان أو عند الرومان .

---

(٢) Inventio.

(٣) Dispositio.

(٤) Elocutio.

(٥) Memoria.

(٦) Pronuntiatio.

وأوضح لنا كيفية اعداد الخطيب وتدريبه ، والقدرات التى لا بد أن تتوافر لديه ، والسبل التى ينبغى له أن يسلكها ، وباختصار فقد أعطانا فكرة واضحة جلية عن الخطابة وأسرارها ، ذلك الفن الذى لم يبلغ انسان فى الالمام به مبلغ شيشرون •

ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن شيشرون قد جاء فى بحثه النظرى بمبادىء عامة • فلقد استطاع اليونانيون أن يتفوقوا فى أبحاثهم النظرية ، أما الرومان فقد أخفقوا فى ذلك •

وكان شيشرون يرى أن خبرة الخطيب الرومانى ينبغى ألا تكون قاصرة على معرفة خطباء اليونان فحسب ، بل لا بد لها أن تقوم أيضا على أساس من تلك الحضارة العظيمة التى كانت لروما •

وهكذا نلمس فى كتاباته البلاغية والفلسفية روحا وطنية قوية تتغنى بمجد روما وتهدف الى وضع الثقافة الرومانية فى مصاف الثقافة اليونانية •

لقد أراد شيشرون أن يتيح للرومان فرصة منافسة الاغريق عن طريق تلقيح الثقافة الرومانية بالفكر الاغريقى :

وأهم كتب شيشرون عن البلاغة هى :

١ ـ De Inventione : « تعن الابتكار » ويعتبر أول ما كتب عن البلاغة فى شبابه فقد كتب هذا الكتاب وهو لم يتجاوز العشرين من عمره

وفى هذا الكتاب يحدد شيشرون عناصر الخطبة ، والأنواع المختلفة للخطبة وطريقة علاج موضوع كل منها ٠

ويقال ان لهذا الكتاب علاقة بكتاب Ad Herennium المهدى الى « هيرنيوس » وقد أخذ شيشرون فى كتابه عن هذا الكتاب الأخير وأن الكتابين (كتاب شيشرون والكتاب المهدى الى هيرنيوس) يرجعان الى أصل اغريقى واخد فى نفس الموضوع ٠

٢ ــ De Orataoe : « عن الخطيب » وقد كتبه ــ على طريقة أرسطو ــ على هيئة حوار بين اثنين من كبار الخطباء الرومان ، وهما أنطونيوس (جد مارك أنطونيوس الشهير) وكراسوس ٠

وهو يتحدث في الكتاب عن طبيعة الدراسات التي لا بد أن يلم بها الخطيب وعن موضوع الخطبة وشكلها العام وطريقة القائها ٠

٣ ــ Brutus : « بروتوس » وهذا كتبه أيضا على هيئة حوار ، وهو عبارة عن استعراض لتاريخ الخطابة لدى الرومان

ــ Orator : « الخطيب » وفيه يتحدث عن الخطيب الحق ، وأنه ينبغى عليه أن يكون متمكنا من جميع أشكال الأسلوب (الرفيع المؤثر ، والمتوسط ، والسهل الواضح) ، وأن تكون لديه القدرة على معرفة ما يناسب كل موضوع من هذه الأساليب ٠

... ويطنب شيشرون في شرح الأسلوب ، فيعالج مسائل النطق ، وتوزيع الكلمات في الجملة ، والايقاع Rhythm وغير ذلك من المسائل الفنية ٠

على أن ما جاء في هذه الكتب لم يكن كله من ابتداع شيشرون ، فقد كانت هذه الكتب تدين بالكثير للدراسات البلاغية السابقة ، سواء في اللغة الاغريقية أو اللاتينية ٠

السياسة :

كانت أهم كتب شيشرون في فلسفة السياسة هي :

١ ـ De Republica « عن الجمهورية » : وهو يحمل نفس عنوان البحث الذى كتبه أفلاطون في نفس الموضوع ، ولكنه يختلف كثيرا عن بحث أفلاطون ٠

فبحث شيشرون يقع في ستة كتب ، وقد بدأه سنة ٥٤ ق٠م واستمر في كتابته ثلاث سنين ، وذلك قبل رحيله الى « كيليكيا » بآسيا الصغرى ٠

وهو عبارة عن مناقشة استمرت ـ على ما يبدو ـ ثلاثة أيام سنة ١٢٩ ق٠م بين « سكبيو أفريكانوس الأصغر » وصديقه « لا يليوس » وسواهما من أعضاء جمعية سكبيو الأدبية ٠

ولم يكن موضوع الكتاب « العدالة » كما تتمثل في « المدينة الفاضلة » لأفلاطون ولكنه يدرس الدولة نفسها

وأفضل نظمها ، وحكومتها ، ومثله الأعلى للدولة ـ كما جاء على لسان سكبيو ـ هو مدينة « روما » حيث كانت تساس بحكمة ووطنية رجلها العظيم سكبيو .

ولا يمكننا أن نتتبع بدقة المناقشة فى جزئها الأول حيث لم يصلنا عنه سوى قصاصات صغيرة ، ولكن جزءها الأخير وصلنا كاملا ، وفيه ينهى شيشرون المناقشة .

والجزء الذى وصلنا قسم من الكتاب السادس خاص برؤيا للعالم الآخر ويسميه شيشرون (حلم سكبيو) وفيه يروي لنا شيشرون كيف أن سكبيو قد رأى في المنام مقر الأرواح الطاهرة ، وكيف أنه قد كلف بأن يعد نفسه لمثل هذا الموطن عندما ينتهى من رسالته فى العالم الدنيوى .

٢ ـ De Legibus « عن القوانين » : من المرجح أن شيشرون كتب هذا الكتاب عقب انتهائه مباشرة من كتابه « عن الجمهورية » اذ أن هذا الكتاب « عن القوانين » يعتبر امتدادا لكتابه «عن الجمهورية » .

وقد كتب هذا الكتاب فى ستة أجزاء وان كان لم يصلنا الا الأجزاء الثلاثة الأولى منه وبعض قصاصات من الأجزاء الأخيرة .

وفى هذا الكتاب يتحدث عن القوانين ويرى أنها شيء طبيعى ، ثم يتحدث عن وضع القوانين وعن الحكام وحقوقهم

وعن القوانين المدنية وغير ذلك • والكتاب على هيئة حوار اعتمد فيه شيشرون على آراء أفلاطون وخريسيبوس •

الفلسفة :

لا شك أن الفكر العالمي مدين بالكثير لنظريات الرومان وأبحاثهم الفلسفية ، ولكن علينا اذا ما أردنا دراسة جذور هذه النظريات والأبحاث وأصـولها ، أن نرجع الى الفكر اليوناني ، ولا غرابة في ذلك فالرومان قد تأثروا تأثرا كبيرا بالفكر اليوناني ، وظهـرت ملامح هـذا التأثر في آدابهم وثقافتهم عموما ، ولكن هذا التأثر يتجلى في أوضح صورة في الفلسفة الرومانية بأجلى مما يتضح في سواها من فروع الثقافة والفكر ، ان قوة الابتكار الرومانية تبدو ضئيلة في ذلك الفرع من فروع الفكر (الفلسفة) دون سواها من فروع الثقافة والفن الأخرى •

والنظريات الرومانية الفلسفية يمكن اعتبارها انعكاسا لمبادىء أربع مدارس يونانية فلسفية كبرى وجدت في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد في العصر الهلينستي أي بعد عصر أرسطو •

وهذه المدارس الأربع هي :

١ ـ مدرسة الابيقوريين •

٢ ـ مدرسة الرواقيين •

٣ ـ مدرسة المشائين ٠

٤ ـ مدرسة الأكاديمية ٠

١ ـ المدرسة الابيقورية :

وقد أسسها « ابيقوروس » من جزيرة « ساموس » (سنة ٣٤١ ـ ٢٧٠ ق٠م) وكان يرى أن الحواس هى التى تقود الانسان الى السعادة ، التى تتمثل ـ فى رأيه ـ فى اللذة والابتعاد عن الألم وكل ما تضطرب له النفس ، وأن الجسم والنفس مكونان من ذرات atoms والجسم شرط النفس فقد ولدا معا وسوف يفنيان معا ، وأن الاحساس ينعدم بعد انفصال الجسم عن الروح ٠

ويرى « ابيقوروس » أن الآلهة يعيشون فى عالم خاص بهم بين العوالم ولكن ليس هناك ما يربطهم بشئون الانسان وعالمه فعلينا أن نطمئن من جهتهم وأن ننفى عن أنفسنا الخوف منهم ، فعدم وجود رابطة تربطنا بالآلهة من جهة وفناء الروح بعد الموت من جهة أخرى لا يدع لنا مجالا للخوف من الآلهة أو الموت ٠

٢ ـ المدرسة الرواقية :

وقد أسسها « زينون » من جزيرة قبرص سنة ٣٠٠ ق٠م ، وكان يدعو الى الاعتقاد بالعناية الالهية ، والفضيلة التى التى هى الخير الأقصى

وهو يجعل الواجب أساسا للأخلاق وبذلك يناقض الابيقورية التى تقول بالآلية والاتفاق والحرية ، والعقل لديه هو أكمل الطرق لتحقيق أسمى الغايات فعلى الانسان أن يحيا وفق ما يمليه عليه العقل

وكل ما يحدث في الطبيعة يحدث بمقتضى الارادة الالهية أو القدر .

وجميع الناس أخوة فى دولة العالم

٣ ـ المدرسة المشائية (Peripatetics)

وهى مدرسة أتباع أرسطو الذين كانوا يجتمعون فى الـ Peripatos (Arcade) « ممشى مسقوف » فى الجمنازيوم بأثينا ومن ثم أطلق عليهم هذا الاسم (Peripatetics) وقد دأبوا على تفسير علوم أرسطو وفلسفته ، كما دأبوا على نشر نظرية أرسطو عن الوسط (Mean تلك النظرية القائلة بأن كل فضيلة وسط بين رذيلتين (ففضيلة الشجاعة مثلا وسط بين رذيلتين نقيضتين هما الجبن والتهور) وهذه النظرية فى الاعتدال تظهر بوضوح فى أعمال شيشرون .

٤ ـ مدرسة الأكاديمية :

وتنسب الى غابة زيتون صغيرة قرب مدينة أثينا ،

وكانت مكرسة للبطل اليوناني « أكاديموس » وبها « جمنازيوم » وفي هذه الغابة كان أفلاطون وأتباعه يلقون تعاليمهم ويقررون مبادىء فلسفتهم • وقد أسسها أفلاطون سنة ٣٨٥ ق•م •

والفضيلة عند أفلاطون هي المعرفة ، وهو يرى أن هناك فارقا كبيرا بين المحسوسات وماهياتها ، فالماهيات كاملة أما المحسوسات فناقصة ، فاذا أردنا الدقة فاننا لا نسمي النار المحسوسة نارا ، بل نقول انها شيء شبيه بالنار (نظرية المثل) فالمثال هو الشيء بالذات ، والجسم هو شبيه المثال • والعالم المعقول يدرك بالعقل المحض ، والمثل هي مبادىء المعرفة •

ويعتبر « كارنياديس » Carneades مؤسس ما يعرف بالأكاديمية الحديثة ، وقد أنكر أن هناك علامة للحقيقة ، وأنها عصية على الادراك ، ونادى بنظرية الاحتمال والترجيح (مذهب الشك scepticism) اذ من العسير أن نصل الى معرفة غير قابلة للجدل والشك ، فكأنه هاجم نظرية « الفكرة اليقينية » •

وقد كان « أنتيوخوس » (سنة ١٣٠ ــ ٦٨ ق•م) رئيسا للأكاديمية من سنة ٧٩ ــ ٧٨ ق•م حيث حضر شيشرون محاضراته • وكانت نظريته تجمع بين المذاهب الفلسفية المختلفة (eclectic) فكان يصطفى من هذه

المذاهب خير ما فيها من آراء ثم يصوغها فى نظرية واحدة تسيودها فكرة أرسطو عن الوسط (Mean) .

وقد انتهج شيشرون نفس النهج ، فلم يتعصب لنظرية (الفكرة اليقينية) ولكنه أيضا كان يعتنق نظرية الرواقيين في أن الفضيلة هى خير مرشد للأخلاق .

راق المذهب الرواقى الرومان أكثر مما راقهم أى مذهب فلسفى آخر ، ويرجع اعجابهم بهذا المذهب الى قربه من مبادئهم الأخلاقية (الجد والصرامة والبساطة والولاء ... الخ)

وقد كان تأثر الرومان بهذا المذهب عميقا حتى لقد أصبح عندهم كالعقيدة فتأثر به رجال القضاء وأصبح أساسا في العلاقات التجارية مع الأجانب وفى العلاقات الدولية عموما كما أضحى منبعا للاستقرار والسلم الرومانى . والفضل فى كل هذا لمجهودات شيشرون .

أفكار شيشرون الفلسفية :

تلقى شيشرون أول دروسه فى الفلسفة على الفيلسوف الابيقورى « فايدروس » (Phaedrus) ثم تتلمذ على الفيلسوف الرواقى « Diodotus » « ديودوتوس » ولكن تأثره بنظريات « فيلو » (Philo) فيلسوف الأكاديمية سنة ٨٨ ق.م كان أعمق من تأثره بفلسفة « ديودوتوس » (Diodotus) وهكذا تتلمذ شيشرون على

ثلاثة من كبار الفلاسفة الذين كانوا يمثلون أهم ثلاث مدارس فلسفية في عصره .

وعندما بلغ شيشرون العشرين من عمره (سنة ٧٩ ق . م) أصغى الى محاضرات (Phaedrus) فايدروس » الابيقورى و « أنتيوخوس » . Antiochus الأكاديمى المجتمعى (eclectic Academic) فى أثينا .

وفى السنة التالية استمع الى محاضرات « بوسيدونيوس » (Posidonius) الرواقى المجمعى فى رودس .

كما أنه تأثر الى حد كبير بالفيلسوف المشائى « كراتيبوس » (Cratippus .

وهكذا نرى أن معرفة شيشرون بالنظريات الفلسفية القديمة والحديثة كانت عميقة وواسعة بحيث لم يجاره فيها أحد .

وقد تأثر شيشرون بجميع هذه النظريات ، وانتهى به الأمر الى اعتناق مذهب التجميع والشك eclectism الذى كان مناسبا لشخصيته المترددة القلقة .

وشيشرون نفسه يقرر أنه من أتباع الأكاديمية الحديثة ، ويبدو أن تأثره بتعاليم « انتيوخوس » Antiochus كان عميقا ، والشك فى نظر شيشرون

لا يعدو أن يكون تمــردا على التعصب (dogmatism) للنظريات المختلفة • وهو يمجد حرية ابداء الرأى (٧) •

والحقيقة عنده تعادل الاحتمال وليس اليقين القاطع ، وقــد زاقت هذه الآراء شيشرون ، وذلك لتوافقهــا مع أغراض الخطابة ، ان الفصاحة فى رأيه هى طفل الأكاديمية ، فتعاليم الأكاديمية هى أصفى منهل للخطباء والسياسيين ورجال الأدب فى حين لم يعن الرواقيون ولا الابيقوريون بقوة التعبير ، بالاضافة الى أن المذهب الأكاديمى كان قريبا الى ادراك الناس ، ولذا كان للأكاديمية مكانتهــا الرفيعة بين النــاس ، فقد كان « فيلو » Philo خليفة سـقراط وأفلاطون •

ورغم هذا فان الاحساس بالحاجة لايجاد أســاس ثابت للأخلاق ، واتهــام الأكاديميــة الحديثة بأن مذهبها خال من مثل هــذا الأساس ، كل ذلك دفع شيشرون الى اعتنــاق المذهب الرواقى ، وكان يزداد له تعصبا كلمــا تقدمت به السن ، لدرجة أنه كان يرغب فى قصر وصف الفيلســـوف على الفلاسفة الرواقيين فقط ، وكان يعتنق النظرية الرواقية القائلة بأن الفضيلة هى المرشــد الأول للأخلاق •

---

(٧) انظر كتابه « عن الواجبات » الفصل الثالث • الفقرة الرابعه سطر ٦٠ ، De. Offic. III-IV. 60.

ولم يكن المذهب الابيقوري يروقه كثيرا ، حتى أنه كان عازفا عن مجرد فهمه أو تقديره وهكذا نرى أنه مزج ــ بطريقة مجمعة ــ مبادىء الأخلاق عند الرواقيين بأصول فلسفته المتأثرة بالأكاديمية الحديثة ٠

ومبادىء فلسفة شيشرون ليست أصلية أو مبتكرة عموما وانما كانت الى حد كبير مجرد نقل وتجميع للنظريات اليونانية ، وشيشرون ذاته يعترف بهذا ويرى أن مجهوده الفلسفى لا يعدو النسخ أى أن فلسفته صورة طبق الأصل من الفلسفة اليونانية ويقول عن فلسفته « اننى لا أمدها بشىء سوى الكلمات وهى كثيرة لدى » ولكن كلمات شيشرون وضعت بطريقة خلابة لا تبارى بحيث كان لها التأثير الأكبر على لغة الأجيال اللاحقة فكأن أصالة شيشرون لا تتمثل الا فى الأسلوب الذى كتب به فلسفته ، كما أنه أسهم فى امداد القارىء الرومانى بعدد من الشروح والتعليقات التاريخية لتوضيح هذه الفلسفة ٠ وأبحاث شيشرون ذات قيمة كبيرة بالنسبة لمؤرخ الفلسفة ، اذ أنها تتناول التطورات الأخيرة للمدارس الفلسفية المختلفة ، وكان يهدف من وراء ذلك الى وضع النتائج التى انتهت اليها المدارس الفلسفية التالية لأرسطو أمام قارئيه ، وسرعان ما انتشرت النظريات الرواقية بين مثقفى الرومان ، وتأثر مفكرو المسيحية بشروح شيشرون لها ، كما تأثرت بها الأجيال المتعاقبة ٠

وقد وجدت المبادىء الأخلاقية التى نادى بها شيشرون صدى قويا فى نفوس الجماهير . فقد أخرجها للناس فى شكل واضح مبين ، ويمكن اجمال هذه المبادىء على حد تعبير شيشرون نفسه فى كلمة الانسانية (Humanitas) هذه الكلمة التى تتبلور فيها مبادىء وخصال الرجل المتحضر .

وأهم ما تتميز به هذه الانسانية من مبادىء هو « العطف » فلا بد من أن يكون أساس معاملة الانسان لأخيه الانسان هو العطف والشفقة والحنو لأن الانسان نفسه جدير بالاحترام اذ يحمل فى نفسه بعض القيم الموروثة . وقد بنى شيشرون رأيه هذا على المبادىء الرواقية التى تنادى بأخوة الانسان للانسان دون النظر الى موطنه أو جنسه أو مكانته ، وقد كان شيشرون هو الداعية لهذا المبدأ . وقد نالت أبحاث شيشرون شهرة كبيرة فى حياته وعقب موته ، وكان غرضه من أبحاثه تلك أن يقرب الفلسفة الرواقية الى الفكر الرومانى ، وقد أحرز فى ذلك نجاحا كبيرا فلقد ساعدت أبحاثه على نشر المبادىء الرواقية بين الرومان وخاصة الطبقة المثقفة فيهم ، حتى أن أباطرة الرومان أنفسهم أصبحوا يميلون الى الفلسفة الرواقية ، وكان أولهم الامبراطور أوغسطوس .

كما تأثر بشروح شيشرون الفلسفية ــ كما ذكرنا ــ مفكرو المسيحية .

وكانت كتاباته الفلسفية رائد النهضة الايطالية فى سعيها لتحرير الانسان الغربى من مفاسد واضطربات العصور الوسطى .

وكان شيشرون فى نظر علماء النهضة بطل الفكر الحر والارادة الحرة والحرية الشخصية تلك المبادىء التى كانت النهضة تنادى بها . وقد احتل شيشرون هذه المكانة فى نفوس علماء النهضة نظرا لمناهضته للأوتوقراطية ونظرا أيضا لتلك الروح المضيئة التى لمسوها فى أبحاثه الفلسفية .

كما كان لهذه الأبحاث أثرها فى القرن الثامن عشر ويظهر هذا الأثر فى اعلان الأمريكيين لحريتهم وحقوقهم ، كما يظهر أيضا فى برنامج الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى . ان « فولتير » وفلاسفة بريطانيا أمثال « لوك » (Lock) و « هيوم » Hume يدينون بالكثير لفلسفة شيشرون .

اعماله الفلسفية :

١ ـ Paradoxa : وهو عبارة عن بعض حكم رواقية تناولها شيشرون بالشرح بطريقته البلاغية ووضع لها امثلة من التاريخ المعاصر ، فمثلا الحكمة القائلة بأن « الرجل غير الحكيم يعد غبيا » كان يقصد بها « كلوديوس » .

٢ ـ Consolatio : « العزاء » بعد أن فقد شيشرون ابنته « توليا » التي توفيت سنة ٤٥ ق٠م حزن على فقدها حزنا شديدا ، وذهب الى منزله الريفى فى « استورا » ووجد عزاءه فى دراسة موضوع فلسفى ، فكتب « عن العزاء » De Consolatio الذى يعتبر محاولة من شيشرون ليعزى نفسه عن فقد ابنته ، وقد فقد هذا الكتاب ولم يصلنا منه سوى قصاصات قليلة جدا ٠

٣ ـ Hortensius : « هوتنسيوس » أو De Philosophia « عن الفلسفة » وهو عبارة عن حوار حول تمجيد الفلسفة التى حاول « هورتنسيوس » الحط من شأنها فى الوقت الذى امتدح فيه الخطابة ٠

وكان شيشرون يهدف من وراء كتابة هذا الكتاب الى تحبيب الفلسفة الى نفوس الرومان وحثهم على دراستها ٠ وقد فقد هذا الكتاب أيضا ولم يتبق منه سوى قصاصات قليلة ٠ وقد تأثر بهذا الكتاب فلاسفة المسيحية خصوصا « سانت أوغسطين » St. Augustine الذى امتدح كتابات شيشرون ٠

٤ ـ De Finibus Bonorum et Malorum « حدود الأعمال الخيرة والشريرة » ٠ ويقع هذا الكتاب فى خمسة أجزاء ويعتبر من أهم كتابات شيشرون الفلسفية ويحتوى على مقارنة بين المدارس الفلسفية المختلفة (الابيقورية والرواقية والمشائية) من خلال موقفها من

قضية الخير والشر ، ونلاحظ أن شيشرون لم يتطرق فى هذا البحث إلى أعمال أرسطو وابيقوروس نفسهما وانما فند نظريات أتباعهما ·

٥ ـ Academica : وهو بحث فى فلسفة المدرسة الأكاديمية ، نشأتها وتطورها حيث تحدث فيه أولا عن المدرسة الأكاديمية القديمة شارحا نظريات « أنتيوخوس » وحاول أن يبرهن على تفوق المدرسة الأكاديمية الحديثة بزعامة « فيلو » وأوضح معالم الاختلاف بين الأكاديمية القديمة والحديثة ·

وهذا الكتاب يعد المصدر الرئيسى لدراسة الفلسفة الأكاديمية ·

٦ ـ Tusculanae Disputationes : « المناقشات التوسكولية » · وقد سميت بهذا الاسم لأنها كتبت فى منزل شيشرون الريفى ببلدة « توسكولوم » Tusculum وهى عبارة عن مناقشات بينه وبين بعض أصدقائه المفكرين حول بعض القضايا الفكرية وتقع فى خمسة أجزاء ، يتحدث فى الجزء الأول منها عن « الخوف من الموت » وفى الثانى عن « احتمال الألم » وفى الثالث عن « الشفاء من الألم » وفى الرابع عن « الأشياء الأخرى التى تقلق النفس » وفى الخامس عن « الفضيلة وكفايتها لتحقيق السعادة » ·

وهو يرى أننا لا يجب أن نخشى الموت سواء كانت

النفس خالدة أو فانية ، وأن علينا أن نحتمل الألم ونتغلب على الحزن والقلق النفسى ، وأن الفضيلة كافية بذاتهـا لتحقيق السعادة للبشر .

وكان هدف شيشرون من ذلك أن يخفف عن قومه الامهم الناجمة عن قلق الأوضـاع واضطرابهـا في ذلك العهد ، وكان لأبحاثه تأثير كبير رغم أنه اعتمد فيها على البلاغة أكثر من اعتماده على المنطق .

٧ ـ De Natura Deorum « عن طبيعة الآلهة » : هذا الكتاب أيضا على هيئة حوار ، تحدث فيه عن وجود الآلهة ، وفند نظريات الابيقوريين والرواقيين والأكاديميين وشكوكهم ، ولم يعرض لآراء مؤسسى هذه المدارس ، وانما فند نظريات أتباعهم .

٨ ـ De Divinatio « عن علم الغيب » : وقـد وضع شيشرون هـذا البحث فى كتابين يمكن اعتبارهما تكملة لكتابه السابق « عن طبيعة الآلهة » .

وقد بحث شيشرون فى الكتابين علم الغيب ومعتقدات الفلاسـفة عنه ، ففى الكتـاب الأول نرى « كوينتوس » شقيق شيشرون يدافع عن آراء الرواقيين الذين يذهبون الى أن علم الغيب ممكن ، وأن الوحى ـ الذى يأتى عن طريق التنبؤات (orcles) والمتنبئين (prophets) صادق ، وفى الكتاب الثانى يرد شيشرون على أخيه معارضا آراءه ومستخدما نظرية الأكاديميين ، وهكذا لا نرى لدى أى من

الأخوين آراء أو أفكارا مبتكرة اذ ترجع كل الآراء والأفكار الى النظريات الرواقية والأكاديمية ·

والغريب فى الأمر هو أن شيشرون ـ الذى لم يكن يعتقد فى الخرافات ـ يعرض لعلاج موضوع عن الخرافات العامة والنظم الدستورية الخاصة بهذه المعتقدات ·

٩ ـ De Fato : « عن القدر » · وقد كتب شيشرون هذا البحث فى كتاب واحد وصل الينا جزء منه ، وفيه يتم شيشرون بحثه فى الديانة ·

وسبب كتابة هذا الكتاب أن « هيرتيوس » حضر لزيارة شيشرون سنة ٤٣ ق·م وطلب منه أن يكتب بحثا عما اذا كان القدر يتدخل فيما نقوم به من أعمال أو لا · وشيشرون فى هذا الكتاب يعارض آراء الرواقيين عن القدر ·

١٠ ـ De Senectute « عن الشيخوخة » · وقد كتب هذا الكتاب سنة ٤٤ ق·م على هيئة حوار مفروض أن يكون قد حدث سنة ١٥٠ ق·م ولكن الكتاب فى حقيقته بحث فى تمجيد الشيخوخة · ويدور هذا الحوار بين « كاتو » الشيخ وضيفيه سكبيو ولا يليوس اللذين حضرا لزيارته ، ثم توجها اليه ببعض الأسئلة عن الشيخوخة فأجابهما الشيخ مدافعا عن الشيخوخة ومادحا لها ، فهى فى رأيه ليست عبئا يثقل حمله ، بل هى على العكس محببة لطيفة ، وقد قصد شيشرون بهذا البحث أن يسرى عن

صديقه الحميم « أتيكوس » الذى أهدى اليه الكتاب وكذلك عن نفسه بعد أن بلغا من الكبر عتيا .

١١ ـ De Amicitia « عن الصداقة » : وقد أهدى شيشرون هذا الكتاب لصديقه أتيكوس والكتاب مكتوب على هيئة حوار أيضا ، وأهم المشتركين فى الحوار « لايليوس » صديق سكبيو أفريكانوس الأصغر والمفروض أن هذا الحوار قد دار عقب وفاة سكبيو (١٢٩ ق٠م) بأيام قليلة ، عندما زار « فانيوس » و « موكيوس سكايفولا » حماهما « لايليوس » وقد قص « سكايفولا على شيشرون هذا الحوار .

الرسائل

لدينا ما يقرب من ثمانمائة رسالة لشيشرون ، وقد تبادل هذه الرسائل مع صديقه الحميم « أتيكوس » ومع « بروتوس » وغيرهما من الأصدقاء .

وقد نشرت هذه الرسائل بعد موته ، وهى تعطينا فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى الأيام الأخيرة للجمهورية الرومانية ، كما تعطينا فكرة عن شخصية شيشرون نفسه .

كما يوجد لشيشرون أيضا بعض الكتابات الشعرية ولكنها ليست فى مستوى شعرى مرتفع ، وبعض هذه

الكتابات من ابتكاره ، وبعضها الآخر عبارة عن ترجمات شعرية ٠

وأهم مقطوعاته الشعرية مقطوعة « عن عصرى » De Temporibus meis التى يعالج فيها موضوع قنصليته ٠

عن الصداقة

الفصل الأول :

فى الفصل الأول من الكتاب يهدى شيشرون بحثه لصديقه « أتيكوس » ذلك البحث الذى يتناول موضوع الصداقة فى شكل حوار يشترك فيه « لايليوس » وصهراه « فانيوس » و « سكايفولا » وذلك عقب وفاة سكبيو آفريكانوس صديق لايليوس بأيام قليلة ٠

وفى اهداء شيشرون بحثه لصديقه « أتيكوس » اعتراف بفضل هذا الصديق الذى كان يحثه دائما على الكتابة فى موضوع الصداقة ويبين له مدى جدارة الموضوع بالدراسة فى ذاته ومن ناحية أخرى فان تناول موضوع الصداقة بالدراسة ملائم لتلك الصداقة الوثيقة التي تربط شيشرون بأتيكوس ٠

وقد أجرى شيشرون الحديث عن الصداقة على لسان « لايليوس » نظرا لأنه أجدر الناس بالحديث عنها فقد كانت الصداقة التى تربط بينه وبين سكبيو مضرب الأمثال ٠

ويذكر « شيشرون » أن « موكيوس ســكاڤولا » و « جايوس فانيوس » حضرا الى منزل صهرهما « لايليوس » ثم بدأت بينهم المناقشة ، « فانيوس » و « سـكايفولا » يسألان ، و « لايليوس » يجيب ٠

ويقول شيشرون لصديقه أتيكوس بأنه سوف يرى فى هذا الحديث صورة لشخصه ٠

الفصل الثاني :

وفى الفصل الثاني يتحدث « شيشرون » عن كلمة « الحكيم » sapiens وكيف أن الناس يعدون لايليـوس حكيما ، كما اعتبروا « ماركوس كاتو » حكيما من قبل ولم يكن تلقيبه بالحكيم Marcus Porcius Cato Sapiens لمجرد المزايا الشخصية والخلقيـة التى كان يتمتع بهـا فحسب ، وانما أيضـا لثقافته ، ويرى أن « لايليوس » يختلف عن الحكمـاء السـبعة عند اليونان (٨) باستثناء

---

(٨) « السبعة الحكماء » اسم خلعه القدماء على سبعة رجال ذوى حكمة عملية ، سياسيين ومشرعين ، وفلاسفة للعصر مابين ٦٢٠ و ٥٥٠ ق٠م ، وقد سجلت المصادر قوائم بأسماء مختلفة ولكن جميع القوائم تحتوى على اسم سولون (من أثينا) وطاليس (من ميليتوس بآسيا الصغرى) وبيتاكوس (طاغى ميتيلين بجزيرة ساموس) وبياس (من بريني بآسيا الصغرى) وتحتوى بعض القوائم على اسم بريانديو (طاغى كورنثه) وكليو بولوس (من رودس) وخيلون (من أسبرطة) ٠

سقراط ، اذ أن البعض لا يضعون هؤلاء الحكماء السبعة في مرتبة فلاسفة الأخلاق (moral philosophers)

ويقول « فانيوس » أن الناس يسألونه كما يسألون « سكايفولا » كيف استطاع لايليوس أن يتحمل ألم موت صديقه « سكبيو أفريكانوس » ، ويؤمن سكايفولا على كلام فانيوس ذاكرا أن لايليوس قد تحمل ألم موت صديقه في شجاعة ورباطة جأش ويبدي لايليوس تواضعه حين يصفه فانيوس بأنه حكيم .

الفصل الثالث :

في الفصل الثالث يستمر لايليوس في حديثه فيقول انه سيكون كاذبا لو أنه أنكر شعوره بالألم والأسى لموت سكبيو الذي لم يكن له صديق مثله ولن يكون ، وان كان يعتقد أن مبعث أساه وألمه انما هو حرمانه من صداقة سكبيو ، وليس هو حادث الموت في ذاته ، فان الموت لا يعد مؤلما بالنسبة لسكبيو الذي عاش حياة مجيدة ، بلغ فيها أقصى ما يمكن أن يبلغه مواطن روماني بل أقصى ما يمكن أن يصبو اليه انسان سواء في حياته أو مماته ، وما أهمية أن يطول عمره بضع سنين أخرى ؟! ، فلم يكن في حياته محتاجا الى اضافة مزيد من السعادة والمجد ولقد جعلته نهايته السريعة لا يحس بألم الموت .

كما أن تمجيد الشعب له واحتفاءه به جعله يبدو وكأنه صاعد الى السماء لا ذاهب الى العالم السفلي .

الفصل الرابع :

فى الفصل الرابع يستمر لايليوس فى حديثه ويقول انه يؤمن بخلود الروح وانه لا يوافق أولئك الفلاسفة المحدثين الذين يذهبون الى أن الروح تفنى بفناء الجسد ، وأن كل شيء يتلاشى بالموت . وأنه يتفق مع الفلاسفة القدماء سواء أسلافه الرومان الذين كانوا يبجلون الموتى ، أو فلاسفة اليونان الذين عاشوا فى جنوب ايطاليا أو سقراط الذى اشتهر بأنه أكثر الجميع حكمة ، هؤلاء الذين قالوا جميعا بخلود الروح وأنه عندما تترك روح الشخص جسده تجد الطريق أمامها مفتوحا للعودة الى السماء ، حيث تعود روح الشخص الطيب والعادل بسرعة .

ولقد كان سكبيو يؤمن أيضا بذلك ، وقد اشترك لايليوس فى مناقشة مع سكبيو عن خلود الروح التى عرف سكبيو عنها الكثير من سكبيو أفريكانوس الأكبر فى رؤيا عرضت له فى نومه .

وقد صعدت روح سكبيو الى السماء فى سرعة ويسر لأنه كان من فضلاء القوم ، ولهذا فهو يخشى أن يكون حزنه على صديقه مبعثه الغيرة وليس مبعثه الصداقة .

أما اذا كان الرأى الثانى القائل بأن الروح تفنى أيضا بفناء الجسم صادقا وأن الاحساس ينعدم حقيقة بالموت فانه اذن لا يوجد نفع أو ضرر أو ألم بعد الموت

لأنه اذا ما انعدم الاحساس فان الانسان يغدو وكأنه لم يولد ، ورغم ذلك فاننا نفرح لمولده ، وسوف تسر الدولة أيضا طالما هي باقية ٠

ويقول لايليوس انه سعيد بذكرى صداقته لسكبيو الذى سعد بصحبته والذى كان متفقا معه فى آرائه العامة والخاصة وكذلك فى رغباته وميوله ، لذلك لم يكن لقب « الحكيم » الذى أضفاه عليه فانيوس مبعث سرور كبير له ــ خصوصا وهو لا يرى نفسه جديرا بهذا اللقب ــ وانه سيكون أكثر سعادة لو ظلت ذكرى صداقته لسكبيو خالدة ٠

ان أعظم شيء يسره هو أن يحتفظ التاريـخ بذكرى تلك الصـداقة القوية التى كانت تربطه بسكبيو ، كمـا احتفظ بذكرى الصداقات الأربع (٩) ٠

ثم يصدق فانيوس على كـلام « لايليوس » وينتهز فرصة كلامه عن الصداقة ويطلب منه أن يحدثهما عنها ، ويشرح لهما طبيعتها ، وحكمتها وآراءه فيها ٠

الفصل الخامس :

فى الفصـــل الخامس يبـدأ لايليوس حـديثه عن الصداقة ، فيقول ان موضوع الصداقة من الموضـــوعات

---

(٩) الصداقة بين أخيلوس وباتروكليس ، ثيسيوس وبيريثوس ، أورستيس وبيلاديس ، ذامون وبيثياس ٠

النبيلة التي يصعب عليه الحديث عنها ، لأن الحديث عنها يحتاج الى فيلسوف ، ولكنه يستطيع أن يطلب منهم أن يضعوا الصداقة فوق أي شيء في العالم ، فليس هناك ما هو أنسب ولا أحب للانسان منها سواء في الرخاء أو في الشدة .

وهو يرى أن الصداقة انما تنمو وتتوثق عراها بين الأخيار ـ وهو لا يقصد بالأخيار ذلك المفهوم المثالي البالغ حد الكمال الذي ذهبت اليه الفلسفة الرواقية فهي تهوم في أفق خيالي فترى أنه ليس هناك رجل فاضل ما لم يكن « حكيما » وأنه من العسير على البشر أن يصلوا الى معنى الحكمة والخير الأقصى عندهم .

ويرى « لايليوس » أنه يجب أن ننظر الى الأشياء الواقعية التي نلمحها في واقع حياتنا لا الى تلك الأشياء الخيالية التي تخلقها مخيلاتنا وأوهامنا ، وهو لا يؤكد أن المواطنين الرومانيين ـ الذين يعدهم أجداده حكماء ـ كانوا حكماء بالمفهوم الذي يذهب اليه فلاسفة الرواقية ، ذلك المفهوم الذي يصعب ادراكه .

ولكنه اذا ما سلك الانسان طريقه في الحياة بشرف وأمانة وعدل ، دون أطماع أو غطرسة أو استهتار ، مثل أولئك المواطنين الذين امتدحهم الأجداد ، كان جديرا بأن يعد في الحقيقة من الأخيار فان الذين يسلكون في

حياتهم مثل هذا المسلك انما يسيرون فى أعمالهم ـ قدر استطاعتهم ـ على مقتضى الطبيعة التى هى خير مرشد الى الحياة الفاضلة « optima dux bene vivendi » .

ويرى « لايليوس » أننا نأتى الى هذه الحياة وبيننا نوع من الترابط ، وأنه كلما قويت الصلة بين شخص وآخر ازداد هذا الرباط الذى يجمع بينهما قوة ومتانة ، ولذلك فان مواطنينا أفضل لدينا من الأجانب ، والأقارب أعز علينا من الغرباء ، ان الطبيعة نفسها هى التى تخلق الصداقة بين هؤلاء الناس . ولكن مثل هذه الصداقة لا تقوم على أساس متين .

وانما تفوق الصداقة القرابة لأن الشعور الطيب بين الأقرباء قد يزول وبزواله يزول معنى الصداقة بينما تبقى صلة القرابة ، فى حين أن ذلك الشعور الطيب يظل قويا بين الأصدقاء .

فيمكننا أن نتعرف على قوة الصداقة من الحقيقة التالية : وهى أنه من بين تلك الروابط العديدة التى لا حصر لها والتى أوجدتها الطبيعة بين البشر ، من بين تلك الروابط العديدة رابطة واحدة وثيقة ومتينة ضيقت الطبيعة من حدودها فجعلتها شعورا متبادلا بين اثنين أو ثلاثة على الأكثر ، وتلك هى رابطة الصداقة .

الفصل السادس :

فى الفصل السادس يتحدث لايليوس عن مفهوم الصداقة ، ويرى أنها توافق فى جميع الأمور الدنيوية والدينية ممتزج بالمحبة والشعور الطيب ٠

وباستثناء الحكمة ، فان الآلهة لم تمنح الخالدين من الناس شيئا أروع من الصداقة فى رأيه ٠

وهناك من يفضل عليها الثروة أو الصحة أو النفوذ أو الجاه أو اللذة ولكن هذه الأشياء ـ فى مجملها ـ سريعة الزوال والفناء ، اذ تتحكم فيها ظروف الدهر وتقلباته ٠

أما أولئك الذين يجدون فى الفضيلة خيرهم الأسمى فانهم بلا شك يختارون الجانب الأسمى والأكثر نبلا ، اذ أن الفضيلة تخلق الصداقة وتعمل على رعايتها والحفاظ عليها ، ولا يمكن أن توجد صداقة على الاطلاق بدون فضيلة (١٠) ٠ وهو يفسر الفضيلة بما يمليه واقع الحياة ، والدلالة اللغوية العادية من مبادىء ، ولا يدخل فى مفهومه للفضيلة أولئك الرجال الفضلاء الخياليين ، الذين لا يوجدون فى عالمنا ، والذين يتحدث عنهم بعض الفلاسفة ٠

وان الصداقة لتؤدى كثيرا من الخدمات فى هذه الحياة ٠

---

(١٠) انظر الفصل الخامس فقرة ١٨ هذا هو مذهب الرواقيين وسقراط ٠

وكيف يمكن أن توجد حياة جديرة بأن نحياها ــ كما يقول ايليوس (١١) ــ اذا لم تشتمل على شعور طيب من صديق ، ما أروع أن يكون لك صديق تبثه ذات نفسك وكأنك تتحدث الى نصفك الثانى .

ان الانســان يحتاج للصداقة ســواء فى رخائه أو شدته ، فهو محتاج الى صديق يشاركه سعادته وسروره كما هو محتاج الى صديق يقاسمه متاعبه وآلامه .

ان كلا من الثروة والجاه والصــحة واللذة ، لهــا مناسبتها الخاصة وميزتها الخاصة فميزة الثروة أن تنفق منها ، وميزة الجاه أن تغدو مبجلا بين الناس وميزة اللذة أن ترفه عن نفسك وميزة الصحة أن تصونك من الأمراض ، وتمكنك من أداء أعمالك الجسمانية ــ وكل ميزة من هذه الميزات وقتية وجزئية ، لها مناسبتها الخاصة التى تستغل فيها استغلالا وقتيا فى حين أن الصداقة تجمع بين كل هذه المزايا .

الفصل السابع :

يستمر لايليوس فى الفصل السابع فى حديثه عن

---

(١١) كوينتوس اينيوس هو شاعر الرومان العظيم ، ولد فى بروند يزيوم سنة ٢٣٩ ق.م وتوفى سنة ١٦٩ ق.م ، ويعيد كتابة « الحوليات » أهم أعماله ، وفى ذلك الكتاب يعرض تاريخ روما منذ بدايته حتى عصره .

الصداقة فيقول انها تضيء الطريق أمام الأمل في المستقبل ، وترفع من الروح المعنوية ، واذا ما زالت المحبة من العالم تفككت الروابط بين أفراد الأسرة ، وأعضاء الدولة ، فالصداقة نوع من الروابط التي تجمع بين أفراد الأسرة ، وأعضاء الدولة ، بل وهي نوع من الروابط في العالم الطبيعي .

ان الفيلسوف « امبيدوكليس » يعتقد أن العالم محكوم بقوتين رئيسيتين وهما المحبة والكراهية ، والمحبة في نظره هي القوة الحافظة في الطبيعة .

ما أجمل أن يشارك صديق صديقه في مواجهة الأخطار .

الفصل الثامن :

وفي الفصل الثامن يناقش لايليوس مبعث الصداقة وأصلها ، وهل هي ناشئة عن احتياج الشخص لعون الآخرين ، أو هي ميل طبيعي في الانسان ؟

وهو ينتهي الى أنها ميل طبيعي ، ان كلمة الصداقة (amicitia) مشتقه من كلمة الحب (amor) وانها القوة الرئيسية في جعل المحبة متبادلة .

وحقيقة أنه قد يترتب عليها نوع من النفع ، ولكن المنافع المترتبة على الصداقة الحقة مختلفة تماما عن تلك

المنافع المؤقتة التى يسديها شخص ما بدافع المجاملة وتحت ستار الصداقة ؛ فالصديق الحق يسدى المعروف لصديقه بدافع الاخلاص لصداقته والشعور الودى الطيب نحوه •

واننا قد نحب شخصا ما اذا ما وجدناه على خلق نبيل ، لأننا نرى فى هذا الشخص مثالا بارزا للشرف والفضيلة ، فليس أحب الينا من الفضيلة ، والفضيلة تجذبنا بقوة الى المحبة وقد تخلق روحا من المودة بيننا وبين الأشخاص الذين لم نتعرف اليهم قط ، بسبب ما كانوا عليه من فضيلة واستقامة • وللصداقة أصلها فى الطبيعة •

الفصل التاسع :

ثم يتابع فى الفصل التاسع حديثه عن الصداقة الحقة الأصلية ، والصداقة الزائفة المؤقتة التى تزول بزوال المنفعة المترتبة عليها •

وكلما كان الشخص متسلحا بالفضيلة والحكمة بحيث يكبح جماح نفسه ويعف عن الدنايا أمكنه أن يكتسب الصداقة ، ويجنى ثمارها •

والصداقة الحقة هى التى لا تنبنى على توقع النفع ، فاننا حين نسدى لأصدقائنا معروفا ، فلا ينبغى أن نتوقع منهم رده الينا ، كما لو كان دينا من الديون • اننا لا ننشد الصداقة انتظارا لما يترتب عليها من منافع ، اذ أن كل نفعها وثمارها تكمن فى المحبة ذاتها •

واذا ما كانت الصداقة مبنية على المنفعة فانها تتلاشى بتلاشي هذه المنفعة • ولما كانت الطبيعة أبدية لا تتغير ، فان الصداقة الحقة كذلك خالدة وأبدية •

الفصل العاشر :

في هذا الفصل يشرح لايليوس العوامل التى تؤدى الى فصم عرى الصداقة ومجملها :

١ ـ اختلاف المنافع والآراء السياسية بين الأصدقاء وتناقضها •

٢ ـ ما يحدثه مرور الزمن من تقلبات وتغييرات مثل المحن ومشكلات الحياة ومسئولياتها •

٣ ـ التنافس على الجاه والشهرة والمناصب •

٤ ـ الطموح الى المنافع غير المشروعة التى تأباها الأخلاق والعدالة ، والتى تؤجج نيران العداوة في الصدور اذا ما رفض الصديق أداءها •

الفصل الحادى عشر :

يعرض هذا الفصل للمطالب المشروعة التى لا ضير في طلبها من الصديق ، والمطالب غير المشروعة التى لا ينبغي أن تطلب من الصديق •

فلا بأس في أن يطلب الصديق من صديقه كل ما هو فاضل ونبيل ، ولكن ليس له الحق في أن يطلب منه ما يحيد عن سبيل الفضيلة ، أو كان مخزيا ومعيبا ، اذ لا يمكن للصداقة أن تدوم اذا ما تنكب الشخص طريق الصواب ، والشخص النبيل الخلق يربأ بنفسه عن أن يضعها موضع الخزى نزولا على نزوة صديقه ودفع الصديق الى أداء عمل ضار يساوى تماما ما لو فعله بنفسه .

الفصل الثاني عشر :

فليكن اذن من مبادىء الصداقة ألا نطلب الى أصدقائنا أداء أعمال مخزية ، أو أن نقوم نحن بهذه الأعمال اذا ما طلبوا منا القيام بها

ثم يورد أمثلة من التاريخ الروماني واليوناني ، ويرى أنه من العار أن يلجأ الشخص الى تبرير أخطائه ، ليس فقط الأخطاء العامة ، وانما أيضا الأخطاء التى يرتكبها فى سبيل الصداقة ، كما لو حاول تبرير جريمة الخيانة ضد الدولة بأنها كانت من أجل صديقه ، وينبغى لنا أن نرشد الصديق الطيب الصالح اذا ما أوقعته الصدف فى صداقة من هذا النوع ، نرشده الى هجران صديقه اذا ما ارتكب جناية الخيانة ، اذ أنه ينبغى معاقبة الخونة كما ينبغى معاقبة أعوانهم بدرجة لا تقل قسوة عن عقوبة مدبرى الخيانة أنفسهم .

الفصل الثالث عشر :

فليكن اذن من المبادىء الأساسية للصداقة ، ألا نطلب من أصدقائنا الا كل ما هو شريف ونبيل ، وألا نفعل من أجلهم الا كل ما هو شريف ونبيل ، وألا ننتظر حتى يطلبه منا ذلك وأن نكون دائما مستعدين لمساعدتهم دون تردد أو تقاعس ، وأن نقدم لهم نصحنا دون أن يطلبوا منا ذلك ، وأن نقيم لنصيحتهم المخلصة وزنها •

ولا ينبغي أن ننأى بأنفسنا عن الصداقة المتحمسة المتفانية كما ينادي بذلك بعض فلاسفة اليونان — حتى لا يرهق الشخص نفسه في سبيل الآخرين اذ أن لدى كل شخص ما يشغله من مشاكل وأموره الخاصة ، والاهتمام بشئون الآخرين وقضاياهم سوف يحمله عبئا ثقيلا وينبغي للانسان أن ينأى بنفسه عما يرهقها ويقلقها ليحيا حياة سعيدة — ان الصداقة ليست كما يرى البعض لمجرد نشدان الحماية والعون ، وليست نابعة عن مجرد العاطفة والرغبة الصادقة ، ولو كان الأمر كذلك لبحثت المرأة الضعيفة عن الصداقة أكثر مما يبحث عنها الرجال لأنها أكثر احتياجا منهم للحماية ، وكذلك لبحث عنها الفقراء أكثر من الأغنياء والرجال التعساء أكثر من السعداء •

ولا ينبغي لنا أن ننأى عن الأعمال النبيلة ضنا بأنفسنا على العناء والارهاق ، واذا ما وضعنا في اعتبارنا ما يكلفه العمل النبيل من تعب وعناء ، فلا ينبغي أن ننمى

الجانب الآخر وهو الفضيلة فاننا اذا ما هربنا من المسئولية فاننا فى الوقت ذاته نهرب من الفضيلة التى تحتقر الصفات التى تضـــادها وتعارضها ، فالشفقة تمقت الأذى وضبط النفس يمقت التهور ، والشجاعة تمقت الجبن .

اننا لا ينبغي أن ننأى عن الصداقة لأنها تكلفنا بعض الجهد والعناء فلولا عواطفنا لما كان هناك فرق بيننا وبين الأحجار والأشـــجار ، وان الفضيلة تكمن فى العـلاقات والروابط المختلفة خصوصا رابطة الصداقة . وان قلب الرجل الفاضل يسر برخاء صديقه ويأسى لتعاسته وشقائه :

الفصل الرابع عشر :

يعود فى هذا الفصـــل فيتحدث عن كنة الصداقة وأصلهـــا ، فيرى أنهـا تنجم عن ميل طبيعي متبادل بين الصديقين ، وانه لا شيء أروع من الحب المتبادل .

أما أولئك الذين ينشدون الصداقة للمنفعة والمصلحة فانهم يجردون الصداقة من أهم مقوماتها وأقدسها ، وان قيمة المنفعة الناجمة عن الصداقة لا يمكن أن تقاس الى حبنا لأصدقائنا فى ذاته ، ان الصداقة ليست وليدة المنفعة وانما المنفعة هى وليدة الصداقة

الفصل الخامس عشر :

فى هذا الفصل يقول لايليوس انه لا ينبغى لنا أن

نلقى بالا الى أولئك الذين أفسدهم الترف حين يتكلمون عن الصداقة التى لا يعرفون عنها أى شيء سواء من الناحية النظرية أو العملية ٠

من هو بحق السماء الذى يفضل أن يعيش غارقا فى النعيم محاطا بكل أنواع الترف على أن يكون محبا أو محبوبا ، ان مثل هذه الحياة الخالية من الحب هى حياة الطغاة التى تخلو من الولاء والمحبة والثقة والصلات الوثيقة ، حيث يظللها دائما الشك والتوجس وعدم الاطمئنان وحيث لا يكون هناك محل للصداقة ٠

فمن ذا الذى يستطيع أن يحب رجلا يشعر بالخوف منه ، أو رجلا يترقب منه السوء ، والدليل على ذلك هو أن أمثال هؤلاء الطغاة يهجرهم أصدقاؤهم بعد أن تتهاوى عروشهم ٠

وكذلك حال الرجل الغنى اذ ليس له أصدقاء حقيقيون ، ان الثروة ليست عمياء فحسب ، بل انها تصيب أيضا بالعمى أولئك الذين يبتلون بها ٠

اننا نلحظ أن الجاه والنفوذ والسلطة والغنى تغير نفوس الذين كانت تتميز أخلاقهم بالسماحة فيحتقرون أصدقاءهم القدامى ، وينشدون أصدقاء جددا ، انهم قد يستطيعون بنفوذهم وسلطتهم وثروتهم أن يشتروا أى شيء ما عدا الصداقة التى يمكن أن تسمى عدة الحياة ٠

ان الحياة المجردة عن الصداقة لا يمكن أن تعد حياة سعيدة •

الفصل السادس عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن حدود الصداقة ، فيعرض ثلاثة آراء فى هذا المجال :

الأول : أن نشعر نحو أصدقائنا بنفس الشعور الذى نشعر به نحو أنفسنا •

الثانى : أن عطفنا على أصـــدقائنا ينبغى أن يتساوى وعطفهم علينـا •

الثالث : أن يقدر الشخص صديقه بمقدار ما يقدر نفســه •

ولا يوافق شيشرون على واحد من هذه الآراء الثلاثة •

فبالنسبة للرأى الأول يرى أن خطأه نابع من أننا قد نفعل أشياء لصالح أصدقائنا لا نفعلها أبدا لصـالحنا الخاص ، فاننـا من أجل الصديق قد نتوجه بالطلب أو الرجاء الى شخص ما ، وقد نخاطبه بحدة أو نهاجمه ، ومثل هذه الأشياء قد لا تكون مشروعة ولا مناسبة فيما يتعلق بنا من أمور ... أما بالنسبة لما يتعلق بأصدقائنا فهى مناسبة ومشروعة جدا ، وفى كثير من الأحيان يحرم الرجال النبلاء

أنفسهم من المنفعة ويؤثرون بهبا أصدقاءهم أو يسمحون لأصدقائهم أن يتمتعوا بهذه المنافع أكثر مما يتمتعون هم أنفسهم بها .

أما بالنسبة للرأى الثانى الذى يجعل الصداقة نوعا من الأخذ والعطاء المتبادل فى الأعمال والرغبات المخلصة بين الأصدقاء فان هذا الرأى ينحدر بالصداقة الى لون من ألوان الحساب ، ويوجب تعادل كفتى الميزان بحيث لا يرجح الشيء المبذول مقابله ولا ينقص عنه ، ان الصداقة الحقة أكثر غنى وتسامحا من هذا ، فلا ينبغى أن نأسف لأن الجانب الأرجح كان من نصيب الصديق ولا ينبغى أن تتوقع أنك سوف تحصل على أكثر مما أعطيت .

أما الرأى الثالث القائل بتقييم الشخص لصديقه بمقدار تقييمه لنفسه فهو أسوأ الآراء الثلاثة اذ كثيرا ما يكون أحد الصديقين خائر العزيمة ، ضعيف الطموح الى تحسين وضعه فمثل هذا الصديق لا ينبغى لصديقه أن يقيمه كما يقيم نفسه ، بل يجب عليه أن يبذل ما فى وسعه كى يقوم من روحه وعزيمته وأن ينمى آماله وأفكاره ويقويها .

الفصل السابع عشر

فى الفصل السابع عشر يتحدث عن الحدود الحقيقية للصداقة ، فيرى أنه من الواجب تقديم العون للصديق اذا

ما تعرضت حياته أو سمعته للخطر ، ولو أدى الأمن الى أن يتنكب الانسان الطريق السوى قليلا ، ما دامت النتيجة فى النهاية غير مشينة •

ولما كانت الصداقة هى أهم ما يمتلك الانسان ، لذلك ينبغى عليه أن يعنى بها أكثر مما يعنى بالأشياء الأخرى التى تدخل فى ملكيته ، هناك من يستطيع أن يخبرك عن عدد ممتلكاته من الماعز والأغنام ، ولكن ليس فى وسعه أن يخبرك عن عدد أصدقائه ، انه يهتم بالأولى ويهمل اختيار الأصدقاء ، وليس لديه من الدلائل والعلامات ما يساعده على معرفة الأصلح للصداقة •

ويجب علينا أن نختار أصدقاءنا من بين أولئك الأشخاص الذين يتصفون بقوة العزيمة وبعدم التردد والذبذبة ويتحلون بالخلق السوى ، أولئك الذين يندر وجودهم وانه يصعب على المرء فى الحقيقة أن يحكم على الصديق ما لم يجربه ، لذلك ينبغى أن نجرب الصداقة نفسها لنستمد منها الحكم على الأصدقاء ، وان الصديق لا يعرف الا فى وقت الشدة •

الفصل الثامن عشر :

ابتداء من الفصل الثامن عشر ، وحتى الفصل العشرين يتحدث لايليوس عن الصفات التى ينبغى توافرها فى الصديق • وأول هذه الصفات أن يكون الصديق مخلصا

اذ لا تستقر الصداقة بدون الاخلاص وثانى هذه الصفات سلامة الطوية ، فينبغي أن نراعي لدى اختيار صديق أن تكون شخصيته واضحة غير ملتوية ، وأن يكون صريحا فى التعبير عن شعوره وأن يحس نحونا بمثل احساسنا نحوه ، فاذا ما كانت شخصية الصديق ملتوية أو لم يكن يتأثر بنفس الظروف التى نتأثر بها ولا يشاركنا مشاعرنا فانه لا يكون مخلصا ولا ثابتا على صداقته ٠

كما يجب ألا يفرح الصديق للاتهامات التى توجه الى صديقه ، أو أن يصدقها اذا وصم بها شخص آخر صديقه ، بل عليه أن يرفضها وينكرها ، وألا يخامره حتى مجرد الشك فى كذب هذه الاتهامات ٠ كما ينبغى أن يكون هناك نوع من الحديث الرقيق العذب ، والسلوك المهذب النبيل بين الأصدقاء تلك المظاهر التى تمنح الصداقة دفئا من نوع خاص ، أما الجدية فى كل الأحوال فانها تؤدى الى نوع من الثقل على النفس ، فيجب أن تكون الصداقة منطلقة غير مقيدة وأكثر طلاقة وجاذبية من أى شيء لطيف آخر ٠

الفصل التاسع عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن الصداقة القديمة ٠ وكيف أن الشخص يفضل الصديق القديم على أن ينشيء صداقة جديدة ، وكيف يجب على الصديق اذا ما ارتفع

عن طريق الجاه أو الثروة أو العبقرية ألا يتعالى على أصدقائه القدامى ، بل يجب أن يشركهم فيما وصل اليه من رفعة وأن يحاول أن يعلى من شأنهم .

الفصل العشرون :

في الفصل العشرين يواصل حديثه عن الصفات التى ينبغى توافرها فى الصداقة ، فيرى أنه ينبغى على الأصدقاء الذين يتفوقون على أقرانهم أن يحرصوا دائما على أن يشعروا أقرانهم بأنهم على قدم المساواة ، وعلى ذلك ينبغى لأولئك الأقران ألا يحزنهم تفوق أصدقائهم عليهم سواء فى المواهب أو فى الثروة أو فى الجاه والمناصب ، ان أولئك الذين يكونون فى مستوى أقل يشكون دائما من أن أصدقاءهم لا يهتمون بمصالحهم بالقدر الكافى ، أو يلومون أولئك الأصدقاء خصوصا عندما يتحدثون عن عمل قاموا به من أجل أولئك الأصدقاء المتفوقين ، وليس مستحسنا من الصديق أن يمن على صديقه بما أسدى اليه من أياد ، ومن واجب الصديق الذى أسدى اليه المعروف أن يتذكر ذلك من نفسه .

وينبغى للأصدقاء المتفوقين أن ينزلوا قليلا عن مستواهم ليرفعوا من مستوى أصدقائهم الذين هم أقل منهم شأنا ، والصداقات تتكون فى مرحلة الرجولة وليست قبل ذلك .

وعلى الصديق أن يحذر الاستسلام لعواطفه اذا ما تعارضت هذه العواطف مع مصلحة صديقه وتسببت في تعطيلها ، كما اذا لم يحتمل الشخص فراق صديقه اذا ما رغب هذا الصديق في الرحيل لمصلحة تخصه ، ان اعاقته عن مثل هذا السفر دليل على الضعف ، يجب أن تقدر ما يطلبه منك الصديق وأن تقدر في الوقت نفسه ما تعطيه له .

الفصل الحادى والعشرون :

وفيه يتحدث عن العوامل المؤدية الى فصم عرى الصداقة ، وأهم هذه العوامل أن تبدو من الشخص نقيصة يضار منها صديقه ، وفى هذه الحالة يقاطع الصديق صديقه بالتدريج ، الا اذا كان الخطأ فادحا وغير محتمل ، ففى هذه الحالة تفصم عرى الصداقة فى الحال ، وكذلك اذا ما تبدلت طبائع الشخص وميوله ـ كما يحدث أحيانا ـ أو اذا ما حدث خلاف في وجهات النظر السياسية فان ذلك يؤدى الى فصم عرى الصداقة ، ويجب فى هذه الحالة ألا يصل الأمر الى حد العداوة البغيضة بين الصديقين ، اذ أن أبغض شيء هو أن تدخل في حرب ضد شخص كان يوما ما صديقك ، بل يجب على الانسان أن يحتفظ بحلمه وهدوئه وأن يتحكم فى زمام أعصابه ولا يترك الزمام للغضب يشتط به ، وألا تتحول الصداقة

الى عداوة وبغضاء ، ويجب أن يتذكر الشخص المضار أنهما كانا يوما ما صديقين ، وألا يعالج الشر بالشر ، انه بذلك يجعل الشخص المسيء جديرا باللوم والتقريع ·

وتفاديا لكل هذه العوامل المؤدية الى فصم عرى الصداقة ينبغي أن « لا تتسرع فى اتخاذ الصديق » وتأكد قبل كل شيء ـ أنه جدير بالصداقة ·

الفصل الثاني والعشرون :

فى هذا الفصل يعرض بعض الملاحظات العامة حول الصداقة ، فيرى أن بعض الناس ينشدون أحيانا أصدقاء يتمتعون بمزايا لا تتوفر فيهم أنفسهم ، فى حين أن الواجب أن يتحلى الشخص أولا بالأخلاق الفاضلة النبيلة ثم بعد ذلك يبحث عن قرين تنعكس شخصيته هو فى طباعه وأخلاقه · ان هذا يجعل أساس الصداقة متينا ، كما يؤدى الى أن يحترم كل منهما الآخر ، واذا فقدت الصداقة الاحترام المتبادل بين الصديقين ، فانها تفقد أعظم شيء يزينها ·

وان من الخطأ أن يعتقد الانسان أن فى الصداقة متسعا للانغماس فى جميع ألوان السلوك المشين ، فقد منحتنا الطبيعة الصداقة لتكون فى خدمة الفضيلة ، لا أن تكون من أعوان الرذيلة ، واذا ما امتزجت الفضيلة بالصداقة فانه يتكون بينهما نوع من الارتباط القوى يحقق للانسان

كل ما يصبو اليه من الشرف والمجد والطمأنينة والسرور ، هذه الأشياء التي بدونها يغدو الانسان تعسا .

لذلك ينبغي ألا ننساق الى الصداقة قبل أن نختبر أخلاق الصديق ونحكم عليها وألا نؤجل ذلك الى ما بعد الصداقة ، فكثيرا ما يكتشف أولئك الذين يعتقدون أن لهم أصدقاء حقيقيين أنهم مخدوعون عندما تلم بهم كارثة تمتحن فيها صداقة أصدقائهم .

الفصل الثالث والعشرون :

في هذا الفصل يقيم الصداقة ، فيقول ان ما من أحد يشك في مزايا الصداقة ، باجماع الآراء ، فقد لا يأبه بعض الناس بشأن المال ، أو يقنعون بالقليل منه ، وقد لا يأبهون بشأن الجاه والمناصب التي تكون عادة مجالا للتطاحن ، وقد لا يأبهون بغير ذلك من الأشياء الأخرى التي يمكن أن تكون مثارا لاعجاب بعض الناس وطموحهم ، ما عدا الصداقة فانها تشغل ذهن جميع الناس ، يفكر فيها السياسيون والعلماء والأدباء ورجال الأعمال في أوقات فراغهم ، وحتى أولئك الذين يكرسون كل وقتهم للتسلية ، ان جميع هؤلاء يعتقدون أن الحياة الحقة لا تساوي شيئا بدون صداقة ، ان الصداقة تضم بشكل أو بآخر حياة كل شخص ، ولا تسمح لأية طريقة من طرائق الحياة أن تشذ عنها ، لا يمكن لأي شخص أن يعيش بدون صداقة .

.. ان الطبيعة البشرية لا تميل الى الوحدة ولا تجد فيها كفايتها وسرورها •

الفصل الرابع والعشرون :

في هذا الفصل يرسم الحدود التى ينبغى أن تلتزمها المعاملة بين الأصدقاء • فيرى أن الصداقة قد تتعرض أحيانا لمواقف تكون فيها مثارا للشك ، أو مبعثا للغضب ، وينبغي للرجل العاقل الحكيم أن يتجنب مثل هذه المواقف ، أو يهون من شأنها أحيانا ، أو يتحملها ما استطاع ذلك ، ان من واجب الصديق على صديقه أن يخلص له النصح ، وأحيانا أن يتوجه اليه باللوم على بعض الأمور وهذا دليل عمق الصداقة والاخلاص ، وعلى الصديق الآخر أن يتقبل مثل هذه الأشياء بروح طيبة وألا يؤولها تأويلا سيئا •

ان التملق والنفاق قد يخلق الصداقة ، كما أن الصدق قد يخلق العداوة ، فالصدق الذى يثير غضب الصديق قد يعرض الصداقة للخطر ، ولكن التملق ـ مهما كان شأنه ـ أكثر سوءا من هذا الصدق ، فان مدح أخطاء الصديق وتبريرها قد يؤدى به الى التمادى فى هذه الأخطاء التى تقوده الى التهلكة • .

وعلى كل فينبغى للصديق أن يكون حذرا ، وأن يتجنب العنف والقسوة فى نصيحته وأن يخفف لومه من الكلمات المؤذية القاسية ، وحتى لو تملق صديقه فينبغى

أن يكون حصيفا فى تملقه بحيث يتفق هذا التملق والأخلاق الدمثة المهذبة وأن يبتعد عن التملق المروج للرذيلة .

ان الحياة مع صديق تختلف عن الحياة مع طاغية .

وينبغي للصديق أن يصغي لصوت الحقيقة الصادر عن صديق مخلص

ويجب على الصديق أن يبغض الرذيلة وينفر منها ، وأن يطرب للنصيحة ويهش لها .

الفصل الخامس والعشرون :

فى هذا الفصل يتابع حديثه عن التملق ، فيرى أنه من الصفات الأساسية فى الصداقة أن تبذل النصح وتتقبله دون من أو استعلاء ، فعلى الصديق أن يمنح صديقه نصحه بروح كريمة دون عنف أو قسوة ، وأن يتقبل منه النصح برضا ودون اشمئزاز أو نفور .

وانه لا شيء أسوأ فى علاقات الصداقة من المداهنة والكلام المنمق المعسول والتملق الكاذب ، ان هذه الأشياء تبعدنا عن الحقيقة والاخلاص فى القول التى لا معنى للصداقة بدونها .

ويجب أن ننأى بهذه الرابطة المقدسة عن مثل هذه الصغائر التى هى من خصال الرجال المخادع المذبذب ، وعلينا أن نميز الصديق المتملق المداهن من الصديق الحقيقى المخلص ، كتمييزنا الشيء المطلى الزائف من الشيء الحقيقى الخالص .

الفصل السادس والعشرون :

في هذا الفصل أيضا يواصل حديثه عن مساوىء التملق ، فيرى أن مثل هذا التملق الضار انما يسىء الى الشخص الذى يتقبله ويسر به ، فالشخص الذى ينتشى بكلام المتملقين انما يتملق فى الحقيقة نفسه ويخدعها ، وان الشخص الذى يدعى الفضيلة والنبل يسره أن يتملق الناس ، وان الصداقة تموت عندما يعزف الصديق عن الاصغاء الى الحقيقة من فم صديقه ، وقد لا يجد الصديق أمامه مفرا من أن يلجأ الى طريق النفاق والمداهنة ، والمتملق يبالغ دائما فى ذكر الأشياء التى ترضى غرور الآخر وتسعده •

وبالرغم من أن التملق له أثره على أولئك المعجبين بأنفسهم آلا أنه ينبغى لأقوياء الشخصية أن يحذروا ذلك المتملق ، خاصة ذلك التملك الذكى الملفوف ، فان التملق المكشوف يمكن أن ينفضح بسهولة ولا ينخدع به الا الحمقى والأغبياء ، ولكن ينبغى أن نحذر ذلك التملق الخفى الحاذق •

الفصل السابع والعشرون :

فى هذا الفصل يختتم لايليوس حديثه ، فيبلور آراءه السابقة عن الصداقة ويلخصها فيقول :

١ ـ ان الفضيلة هى التى تخلق الصداقة وتهبها القوة وصفة الاستمرار ٠

٢ ـ انها ميل شخص لشخص آخر دون اجبار ، أو طمع فى نفع ، ولو أن الصداقة قد تستتبع المنفعة ولكن دون سعى اليها أو انتظار لها ٠

٣ ـ التساوى فى العمر قد يساعد على الصداقة ، ولكن قد يصادق الانسان من هم أصغر منه سنا ٠

٤ ـ يجب أن ننشد أصدقاء نتبادل معهم المحبة ، والا فقدنا جميع مسرات الحياة ٠

٥ ـ لا شىء ـ باستثناء الفضيلة ـ يمكن أن يعادل الصداقة ٠

٦ ـ ان الصداقة أجمل نعمة منحتها السماء للأرض ٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 3850 — 9

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتا